بعضها بعضاً. كيف لا وهو البليغ الذي لم تكسر النهاهة معنًى خليج في صدرهِ والفصيح الذي لم تحجب اللكنة خاطرًا دارَ في خلدهِ. فأيما خاطر خطر لهُ وأيما معنى تصوّرهُ ابرزهُ كاسياً بحلّة البيان والجناس والبديع وتلك غاية قلّ من انتهى اليها احد من معاصريهِ

ثم طعن هذا الاب الفاضل في أيامهِ فعانى مشاقّ الشيخوخة مع اتعاب التأليف والنسخ بمزيد الصبر وملازمة التجلّد. وما زال يعدّ نفسهُ للقاء ربّهِ الى ان فاضت اليهِ تعالى في ٣١ من اذار احد شهود عام ١٧٤٢ للمسيح فعظم المصاب فيهِ على آداب اللغة السريانيّة التي اعاد اليها الفخر والمجد وافل بافولهِ كوكبها المنير ومن عجبٍ ان يأفل الكوكب في اللحد

فلئن بكتهُ أسًى يحقّ لها او لا فقي سعةٍ من العذرِ
فلمثلهِ جرت العيون دماً ولمثلهِ جمدتْ فلا تجري

وكان على ما افاد معاصروهُ قويّ البنيّة ربعة القوام سهل الاخلاق رحب الصدر ثاقب الرأي يقظ الفؤاد مكرّم الجانب متوقد الذهن حسن البيان فصيح اللسان بليغ الكلام كثير الحفوظ حازماً مقداماً عالماً عاملاً شاعراً مفلقاً نبيهاً. رحمهُ الله عداد حسناتهِ وافرغ عليهِ شآبيب عفوهِ ومرضاتهِ

تباين الحظوظ بين الناس

لحضرة المنشيور يوسف افندي الاسقفي[1]

خطاب تلاه في غرفة القراءة الادبيّة القديس مارون في ٣١ تموز سنة ١٩٠٣

انّنا في كلامنا السابق « في الالفة البشريّة » (١ في هذه الغرفة البهيّة وعدنا بالجواب على اعتراضين أوردهما المخالفون حرصاً على الالفة: (اوّلهما) لماذا لم تكن الارضون مقسومة بين الناس قسمةً متساوية حفظاً للالفة بينهم او لماذا لا تُقسم الآن بالتساوي دفعاً للنفار الذي يحصل بينهم من عدم تساويهم في اقتسامها. (ثانيهما) لماذا تباين الناس

١) راجع المشرق (٥ : ٦٥٤)

في الحظوظ تبايناً مبيناً على حين قد خُلقوا من اصلهم للالفة فانهُ لا يلائم مبدأ الالفة على زعمهم ان يُرى هذا غنياً سرياً مما هو عليهِ من نواقص المعارف ونقائص الاعمال وذاك على ما فيهِ من سموّ المدارك وحسن المسالك في اسوإ حال لا قيمة لهُ ولا قدر وكأني بهِ يقول:

وكم اخطرُ في بالي ولا اخطرُ في بالي

فلو وُجد توفيق بين الناس في هذا الامر بان تكون خيور هذه الدنيا لهم بحسب استحقاقهم من جهة فضلهم وعقلهم وجدّهم لاستتبّت الالفة بينهم. فانجازًا للوعد وحبًّا بتتمّة الفائدة من كلامنا على الالفة البشريّة ولواحقها اقول الآن

الردّ على الاعتراض الاوّل في اقتسام الارض المتساوي بين الناس

ان الاعتراض الاوّل ليس من ورائهِ كبير امر ولا هو من المشاكل لكن احبَّ ان يتعلّل بهِ بعضٌ من اخوان البطالة والطيش سدًّا لمطامعهم من ثروات الاغنياء بدون ان يُتعبوا انفسهم في عمل على حين انَّ الانسان ترتّب عليهِ منذ اوائل عهده تحصيل معاشهِ من تعب يديه وعرق جبينه متشاغلاً في تقليب هذه الارض التي كانت اوّلاً للجميع مشاعاً لكن لمَّا اخذوا يتكاثرون فيها غشي كلُّ قسم منهم قسماً منها وشغلهُ فملكهُ. وهكذا بالتدريج الى ان صارت كلُّها مملوكةً وهذا مطابق للعقل والعدل والتاريخ

فلو أحببنا الآن حبًّا بخاطر اصحاب هذا الاعتراض ردَدْنا الى اصلها وقسمناها على الاهلين فاخذ هذا قسمهُ وشغلهُ وبالغ في العناية بهِ وتدبّر في أمر معاشه فصار غنياً مثريًا امَّا ذاك فعمل بالعكس على ما نرى الآن بامّ العين في العيال الغنيَّة فان بعضاً منها يأخذ قسمهُ ويزيده بجدّهِ وادارتهِ والبعض الآخر لا يلبث ان يبدّد نصيبه من بيت والدهِ تبديد الابن الشاطر المضروب مثلهُ في الانجيل الكريم فيلزمنا عند ذلك ان نعيد القسمة كل يوم ولكن من دون فائدة لا بل يجرّنا ذلك الى تشويش نظام الكون وتوريط اهل الكسل في غيّهم

هذا فضلاً عن حجّة ثانية ترد علينا من وراء هذا الاقتسام المطلوب وهي لو أنّنا قسمنا ارضاً بين قبيلتين فنمت الواحدة منها بعد القسمة حتى صار عددها عشرة آلاف نسمة مثلاً. واماً الثانية فلم يكثر عددها بل تناقص ومن ثمَّ لم يبقَ توازن بين القبيلتين في العدد فكيف يكون العمل . . .

انهُ لا توفيق في هذا المبحث الّا بما رسمهُ الكتاب العزيز وهو ان الاغنياء عليهم ان يوزّعوا من فضلاتهم على الماكين مستخدمين لهم في اشغالهم وعلى الماكين ان ينفعوا الاغنياء في اجتهادهم وخدمتهم في مصالحهم فهذه هي قاعدة الاقتصاد المسيحي وهو مطابق للعدل والعقل. قال في الذهب: «وما مثلُ هؤلاء واولئك الّا مثل البطن والاعضاء. فان البطن حقُّهُ ان يتناول الطعام لكن لا لحفظهِ برمَّتهِ لنفسهِ بل لتوزيعهِ على الاعضاء حتى اذا لم يوزّعهُ وترك الاعضاء تذرب جوعًا وتضورًا قامت كلّها عليهِ واوقعت بهِ. فعلى هذا النحو تُحفظ الالفة بين الناس بأن يساعد الاغنياء الفقراء باموالهم ويساعد هؤلاء اولئك مبتعدين عن دكّات البطالة وحانات اللهو متشاغلين في امورهم فيصحّ لنا ان نقول حينئذٍ ما قالهُ احد الائمة العقلاء وهو ان معاهد الالفة الحقيقية انّما هو الدين القويم وان النصراني الصحيح هو الفيلسوف والمقتصد الحكيم» اه

الردّ على الاعتراض الثاني في تباين الحظوظ بين البشر

واما الاعتراض الثاني بتباين الحظوظ فالجواب عليهِ يوجب علينا ان نأتي اوّلًا على ذكر شيء من امور العناية الصمدانيّة ولستُ اظنّ انّ بينكم من يشكُّ في وجود هذه العناية وشمولها لهذه الموجودات باجمعها وهو يعرف ويعتقد ان الله تعالى هو الخالق لهذه الموجودات وانّها لم توجد من نفسها وان بينهُ وبينها نسبةً تستدعي منهُ حفظها والعناية بامرها على انّ الصانع الحكيم لا يعنيه فقط إحداث عمل من صناعتهِ بل يعنيه ايضًا الاهتمام ببقاء ذاك العمل وصيانته. وايُّ مهندسٍ عاقل يبني جسرًا مثلًا ولا يُعنى بامر بقائهِ ودوامهِ. وايُّ ساعاتي لا يهتمُّ بدوران الساعة التي ركّب ادواتها وهاكم النظام الغريب في مدار هذا الفلك الفسيح فانهُ اعظم دليل على وجود العناية. فكيف استوت يا ترى هذه الكواكب العديدة المختلفة الاجرام كل هذه المدّات المديدة في مركزها دون تقلقل وكيف استمرَّ دورانها كل هذه الاجيال الطوال دون اختلال ولا اعتلال وكيف لم تختلف قطّ ايّامها ولياليها عن ترتيبها منذ عهد ابداعها وكيف حُفظت هذه الموازنة فيها لولا العناية. وزد عليهِ ان هذه الكائنات عديدة ومختلفة ذات خصائص وطبائع متباينة فلا بُدَّ ان تكون مربوطة بنظام وترتيب وان كان هنالك نظام وترتيب لزم ان تكون بداءة وغاية ووسائط تؤدّي الى الغاية وهذا كلهُ يستلزم وجود عناية لان سَوق الاشياء الى غايتها لا يتمّ بدون عناية مَن خلقها لتلك الغاية

وهذا لا يتمّ بدون معرفة الماضي والحاضر واستدراك المستقبل ومَنْ تُرى يعرف الماضي والحاضر والمستقبل غير الله

وما لنا وهذه الاستدلالات ونظام هذا الكون لا يُتصوَّر قيامهُ بدون حكمة سامية وقدرة الهيَّة ونحن كلُّنا سيحيُون بنعمة الله ونعتقد وجود عناية في الله بمخلائقه كلها لانهُ هو الذي ابدعها وهو الذي يحفظها ويدبّرها. وهذا الكتاب المقدَّس فانهُ اهمّ تاريخ لاعمال العناية الالهيَّة حيث ابان لنا تصرُّفات العناية منذ البداءة في حقّ آدم ونوح وابرهيم وموسى وداود وغيرهم كثيرين في جميع حركاتهم وسكناتهم بما بذلت لهم من الوسائل وقيَّضت لهم من التدابير العجيبة لا بوجه الاجمال بل بالخصوص. فايُّ عاقل يطالع تاريخ هؤلاء ولا يرى ظاهرًا ان هنالك عناية سموَّية ساقت توحًا الى عمل فلك نجا به هو وعائلته من غائلة الطوفان. وان تصرّفات يوسف في ظهراني اخوته وفي حبسه وفي قصر فرعون لم تكن من باب الخبطة والاتفاق. وان اعمال موسى في جانب فرعون وشعب اسرائيل لم تكن من وجه الاتفاق والصدفة بل كانت كلها مرتَّبة ومنظَّمة ومنسوقة ومسوقة ترمي الى غايات مخصوصة واغراض معيَّنة. وهذا الانجيل فانهُ قد ابان لنا بعبارة صريحة عناية الله في جانب خلائقه كلها كاشراق الشمس واتزال المطر وكالطيور في غذائها وقوتها وطيرانها وهبوطها وكاعشاب الحقول في كمائها من الزهور الزهيَّة اثوابًا لم يلبسها سليمان الحكيم في زينتهِ مجدهِ وعزَّتهِ السنيَّة. واماَّ في جانبنا نحن مخلوقاته الناطقة فان عنايتهُ فائقة ومتناهية بحيث أتت بما لم تأتِ بهِ امٌّ من الامهات من احصاء شعور رؤوسنا محافظةً علينا

يقول البعض انَّنا اذا نظرنا الى تصرُّفات العناية وجدنا فيها احيانًا اعمالًا لا تخلو من المغامز والمعايب الغير الملائمة كرمي يوسف مثلًا في الجبّ والحبس وبيعه من اخوته والقاء موسى في الماء وهروبهُ الى البريَّة لرعاية غنم حميهِ الى غير ذلك من الاحداث التي على ما يظهر لا تُشعرنا بان عناية الله كانت ساهرةً على اولئك الرجال تدبّر امورهم بضبطٍ وتدقيق. وهكذا قل في الاحداث العموميَّة كالخطيئة الاصليَّة التي جلبت المضارّ على البشر وبروز المرطقات في الكنيسة المقدَّسة ونظائر ذلك فكيف تكون العناية والحالة هذه مستوفية كامل مقتضياتها من الدقَّة والضبط في تصرُّفاتها

اقول ان الجواب على هذا يدعونا الى استيضاح بعض قواعد عامَّة وهي اولًا ان

اجزاء الكون واطرافه باجمعها مترابطة متشابكة ببعضها حتى اظنّ انك لا تقدر ان تعرف جزءاً منها دون غيره بل بالاحرى من دون ان تعرف الكل. وبموجب هذه القاعدة متى رأيت حدثاً جللاً ورمت ان تحتكم فيه يلزمك قبلاً ان تعرف وقوع هذا الحدث في أيّة حلقة من حلقات السلسلة المربوطة بها اطراف هذا الكون وان تعرف ما العلاقة بين حلقة وحلقة اي ما لذاك الحدث من النسبة الى الحوادث الماضية والحاضرة والآتية. فان بعض الحوادث لا يُتوصّل الى معرفة حقائقها ولواحقها ومندرجاتها ومتعلقاتها الّا بعد مرور اجيال فكيف يمكنك والحالة هذه ان تحكم في امر لست ترى منهُ الّا شيئاً طفيفاً وقد تمرُّ الاجيال عليه ولا تزال اشياء منهُ غامضةً عليك. « عرفت شيئاً وقد فاتتك اشياء ». كما قال العالم بسكال. قال القديس اغوسطينوس: « ان قدرت ان تعلم كل شيء من هذا الوجود فاحتكم وسبّح بحمد ربّك واماً اذا لم تقدر ان تعلم الّا اشياء طفيفة جداً فكيف تتجرأ ان تحتكم في الكلّ والكلّ كبير وعظيم جداً ». وقال فم الذهب: « ان شئت ان تحكم حكماً قويماً في الامور فانتظر نهايتها. فما قولك برجل ينسب الفلاّح الى الجهل والغباوة لانهُ يراهُ يبذر بذارهُ في الارض فيظن انهُ يتلفها بذلك اليس هو احقّ منهُ باللامة والتقريع اذ لا ينتظر ايّام الحصاد فيرى السنابل حوامل والحبّة الواحدة توفّرت فصارت ثلاثين وستين ومئة فكذلك لا يمكنك ان تدرك اعمال الخالق وتحكم فيها لقصر فكرك فانتظر النهاية يَنجلِ لك كلّ شيء. »

وبناء عليه لا يسوغ لنا ان ندين العناية العلويّة ولا ان نعيب تصرفاتها فيما لو تساءلت احياناً بوقوع ما لا نراهُ نحن ملائماً كمصيبة آدم مثلاً فانّنا اذا لم نُراعِ كل ما يلزم مراعاته ونعتبر كل ما يلزم اعتباره من كل جهة ضللنا في الحكم واخطأنا. ولكن متى لاحظنا جيّداً ان الله قد انعم على الانسان باجلّ هبة واشرف نعمة وهي الحريّة الّا ان الانسان تصرّف بحريته واساء في تصرفه واماً الله جلّت حكمتهُ فاستخرج من هذا الشرّ خيراً لنا ومجداً لاسمه وذلك بتجسُّد ابنه يسوع المسيح الذي رفع الطبيعة البشريّة الى اشرف مكانة وجعلها عن يمين الله في السماء وصيّرنا نحن اولاد آدم ورثةً معهُ في ملك مجدهِ ومجّد اباهُ مجداً لا يعادلهُ مجد فكان الخير اعظم بكثير من شرّ تلك المعصيّة ومن ثمّة كان حكمنا على عنايته تعالى غير مصيب

تقول ولماذا اعطى الله الانسان هذه الحريّة وتركهُ وشأنهُ يعمل ما يشاء. اجبتُ

صورة المطوّب حديثًا

يوحنّا ماري ڤيانّاي الشهير بجوري أرس

ان الله انما قصد في اعطائهِ الحريَّة للانسان امرين خير الانسان ومجد اسمهِ عزَّ وجلَّ فالانسان الذي لا يحسن التصرُّف بحريتهِ يكون هو الذي اختار خسارة خيرهِ وجلب لنفسه الضرر بهواه ورضاهُ واما الله جلَّ وعلا فانهُ لا يدع مجد اسمهِ ان يلمَّ بهِ اذًى اذ يُجري عند ذلك في جانب هذا الانسان مقتضيات العدل ويستبقي شرفه سالمًا غير ممسوس. وعليهِ فالشرور التي نراها نحن لقصر عقلنا غير ملائمة في حقِّ العناية الصمدانيَّة لا تكون كذلك في نفسها عند الله اذ لا لوم على العناية ولا ذنب والله بسامي تدبيرهِ يحصل الغاية المرتَّب لها هذا الوجود في كل الاحوال ولا يكون خاسرًا الَّا الانسان الذي ما احبَّ ان يتصرَّف بحريتهِ تصرُّفًا حسنًا بل اختار برضاه ان يخالف النظام الموضوع لهُ من ترتيب العناية

واما قولك: «ولماذا ترك الله الانسان لحريتهِ يعمل كلَّ ما يشاء» فالجواب عليهِ هو ان الله تعالت حكمتهُ قد احبَّ ان يكون الانسان انسانًا واما انت فكأنك تحب ان يكون الانسان حيوانًا اعجم لا بل جمادًا. الله جلَّ جلالهُ احبَّ ان يكون للانسان فضلٌ في اعمالهِ ويتحلَّى باشرف مزيَّة وانت تريد ان تنزع عنهُ هذا الفضل وتلك المزيَّة. قل لي بحقك اي فضل كان للانسان في اعمالهِ لو كان يأتيها اضطرارًا واجبارًا من دون رضى ولا حريَّة ولا اختيار. وهل كان يترتَّب لهُ عليها ثواب ام كان يترتب عليهِ منها عقاب. وما كانت الفائدة من الشريعة التي تأمرهُ بالخير وتنهاه عن الشرِّ ان كان ليس لهُ حريَّة في اعمالهِ. واي عدل كان في المحاكم التي تقضي على ذياك الجاني بالاعدام او بعقوبة زجرًا لهُ ولغيرهِ عن ارتكاب المعاصي. لا بل ما كانت الفائدة من الاديان نفسها لو كان الانسان عديم الحريَّة والاختيار في اعمالهِ. ولعمر الحق انهُ ليتولَّانا العجب عند ما نرى مثل هؤلاء قد انكروا عليهِ الحريَّة وهو يشعر بها من ذات نفسهِ. فمن حاول ان يعرِّي الانسان من اشرف هبة نالها من مراحم تعالى قد احبَّ مسخهُ وان لا يكون انسانًا وبعبارةٍ ثانية قد احبَّ إبطال هذا الكون الادبيِّ بجملته لانهُ اذا لم تكن للانسان حريَّة صحيحة لم تكن فائدة من وجود الاحكام والاديان فتأمل

ان من عرف شرف الحريَّة وفضلها عرف حكمة العناية الالهيَّة في رعاية جانب هذه الحريَّة في الانسان فان الاكرام الذي يؤدَّى لله تعالى من انسان واحد من الناس عن مطلق حريَّة واختيار لهو اعظم من الاكرام الذي يتقدَّم لهُ تعالى من جميع الخلائق العجماء.

لان هذا التكريم من هذه الحلائق هو حاصل لهُ من نفسه اي حاصل من الحلائق بلسان حالها لا من علمها ورضاها بخلاف التكريم الذي ينالهُ الله من الانسان فانهُ تكريم صحيح حقيقي لانهُ صادر عن حرّية ورضى واختيار فهو والحالة هذه اشرف وافضل مما لا يُقاس لصدوره من خليقة تريد ان تكرّم خالقها وان تحبه وان تعبده برضاها وحرّيتها واختيارها وهذا الفرق ظاهر لا يحتاج تبيانًا ومن انكرهُ كان كمن لا يفرق ما يلقاه من أمياله بنيه عمَّا يلقاه من امیال مواشيه. قال المعلّم الملكيّ: «اذا زالت الحرّية من الانسان زال معها منًّا الاختيار وزال الاغراء والتحريض والامر والنهي والاقتصاص»

هذا ولا تقوم الحرّية في الاقتدار على عمل كل شيء من خير او شرّ ومليح او قبيح بلا قيد ولا حدّ فان هذه الحرّية المطلقة العنان التي لا تُقيَّد في اعمالها ليست هي الحرّية الصحيحة المنظّمة لانَّ قوام الحرّية انما هو في اقتدارها على عمل ما لا ينهى عنهُ العقل وترك ما لا يحسن عملهُ اي في اختيار ما ترسمهُ الشريعة لاننا لو اطلقنا للحرّية العنان لعمل كل شيء خارجًا عن الشريعة وفي دائرة الشريعة لاتينا من وراء ذلك ما لا نريد بل لاقينا المُحال. وذلك لو أبحنا لزيد مثلًا ان يعمل كل شيء لزمنا ان نبيح لعمرو مثلهُ عمل كل شيء وهذا محال اذ يعود عمرو ضدًّا لزيد لا بل يعود الباقون كلهم ضدًّا لهُ اذ نكون ابحنا لهُ كل شيء ولهم ابحنا كل شيء. فكيف التوفيق بينهم والحالة هذه أليس هذا التوفيق من المحال

فالشريعة اذًا هي صوان الحرّية وحماها لان الذي يعمل بحسب الشريعة لا يقدر ان يمنعهُ احد فيمنعهُ عن عمله او يجبرهُ عليهِ لان الشريعة ملجأهُ وحماه. قال شيشرون قولًا بديعًا في هذا الخصوص: «انّا اذا ما تقيّدنا بالشريعة صرنا احرارًا». فالحرّية اذًا لا تقوم باطلاق العنان لها في اعمالها بل في اختيارها هذا العمل او ذاك اي في امكانها ان تعمل ما يُراد عملهُ وان تترك ما لا يُراد عملهُ. فلو ترك الله الانسان وشأنه في استعمال حرّيته في كل شيء لما تبقّى لهُ الى ملامته سبيل وكان مثلهُ مثل ربّ بيت ترك عبيده يعملون ما يشاؤون فعملوا ما لا يريد فاذا لامهم عليهِ وهو لم يضع لهم دستورًا يمشون عليهِ في خدمته كان لومهُ لهم في غير محلّه لا بل كان ظلمًا تعالى الله عن ذلك

السرّ في تباين الحظوظ

فلنأتِ الآن بالجواب على السؤال الاخير بخصوص تباين الحظوظ بين الناس ومداره

امران (اولها) تباين المواهب والحالات (ثانيها) اشتراك خيور الدنيا بين الاخيار والاشرار

وقد طالما طرح هذا السؤال في الاعصر الخوالي وكثيرًا ما ترى الناس يكررونهُ وهو لماذا نرى الاخيار في سوء حال والاشرار في حسن حال وعلامَ اولئك الفضلاء العقلاء يشقون وهؤلاء الجهلة السفها ينعمون. ان الجواب على تباين المواهب والحالات بين الناس لا يخفى على من طالع مقالتنا السابقة في « الالفة البشرية » (راجع المشرق ٥: ٦٥٤) حيث اثبتنا ان العناية الالهيَّة قد وزَّعت مواهبها بين البشر ضنًّا منها على حفظ الالفة ليكون الواحد مفتقرًا الى الآخر كما وزعت في الارضين غلَّاتها لتحصل المواصلات والمعاملات وكلها وسائل للالفة وابرام حبالها

اما الآن فعلينا ان نبحث بحثًا مدققًا في تباين الحظوظ بين الناس وكثيرًا ما نبحث عنهُ قبلنا اعلام العلماء واقطاب الاديَّة لانهُ من المشكلات المعضلات اذ نعلم حقيقةً من جهةٍ ان عناية الله شاملة الجميع وانهُ يحب الابرار ويبغض الاشرار لانهُ صالح وقدوس فمن الواجب اللازب ان يوفق الابرار الى كل خير ويتعقَّب الاشرار بكل ضَير. الَّا اننا من جهة أُخرى نجد الامر احيانًا كثيرة على خلاف ذلك فتأخذنا الدهشة والحيرة حينئذٍ من ماجريات العناية على هذه الصورة. وهذه خيور الدنيا تنحصر في اربع صحَّة وثروة ورجاهة وحياة فاذا نظرنا الى الصحَّة مثلًا نرى ذياك اللص الشرير مالكًا منها جانبًا عظيمًا اذ نجدهُ صحيح الجسم قوي البنيَّة ونرى هذا العابد المتهجد ضعيفًا نحيفًا:

كهلال الشكّ لولا انهُ أنّ عني عينهُ لم تتأَي

وهكذا الثروة فان ذاك الجاهل الكافر شبعان متموّل وهذا الفاضل العاقل جوعان متموّل. وكذلك الرفعة والوجاهة فانك ترى ذاك المعوجّ الذي لا يعرف الاستقامة والعدل سائدًا متوجهًا يقول ويطول وهذا المستقيم المنصف مرفوت معزول لا يطلب صدور درجة من الرفعة والمناصب حتى تتلقاهُ عتبات ومصاعب. وهكذا الامر من جهة الحياة فانك تجد ذلك القاهر الغادر يعيش عيشًا رغيدًا مديدًا وهو يُميت كثيرين بظلمهِ وغدرهِ وترى ذاك المحسن الكثير المبرَّات الذي احيا كثيرين بحسناتهِ وصدقاتهِ تغتالهُ المنيَّة قبل ميقاتهِ ورائيهِ ينشد حولهُ:

ولكنَّ المنية فقد حرّ يموت لموتهِ خلقٌ كثيرُ

هذا ثمَّ اننا في طورٍ آخر نجد العكس في كل ما ذُكر فاننا نرى بعض الاشرار يصفهم الله في ريعان عمرهم وبعضهم يصبحون لا يملكون شروى نقير بعد ما كانوا من اصحاب الثروات الطائلة. وآخرين منهم استولت عليهم مواكب الامراض والعاهات حتى صاروا عبرةً لمن اعتبر. وكذلك الاخيار فاننا نرى منهم اصحاءَ متعافين واغنياء متمولين واصحاب وجاهة ومكانة. ومنهم من يعيشون عمرًا طويلًا حتى يشبعوا من السنين ومنهم اصحاب ثروة وسطوة ورفعة ومقدرة كابرهيم وايوب وداود وغيرهم. فكيف السبيل والحالة ما ذكرنا الى معرفة دخيلة الامر من تصرُّفات العناية الالهيَّة في هذه الخيور وتوزيعها بين الاخيار والاشرار بصورة ملتبسة غامضة لا بل فيها من الملابسة والمغالطة ما لا يخفى اذ ليس لها قاعدة ولا قياس نبنى عليه حكمًا مطَّردًا

فلنذهب والحالة هذه الى المعلم السماوي الذي انار العالم كله بنور تعليمه عسانا نجد عنده فتوى أو قولًا فصلًا لهذه المشاكل. فانَّهُ تعالى اسمهُ حضر عنده ذات يوم (لوقا ١٣) قوم يخبرونهُ بالذين سقط عليهم البرج في سلوام وابادهم وكانوا ثمانية عشر. ثم اتى اليهِ قومٌ غيرهم اخبروهُ عن الذين قتلهم بيلاطوس من اهل الجليل وخلط دماءهم بذبائحهم وكان اولئك المخبرون يظنُّون ان تلك البلايا حلَّت بهؤلاء واولئك لفرط شرِّهم فقال لهم السيد المسيح: «اتظنون ان هؤلاء واولئك اكثر شرًّا واثمًا من جميع الساكنين في اورشليم كلَّا فان لم تتوبوا انتم فكذلك تهلكون». هذا ما قالهُ معلمنا الالهي بخصوص البلايا واما توزيع النعم فقال فيهِ (لوقا ٤: ٢٧): «برصٌ كثيرون كانوا في عهد اليشاع النبي فلم يطهر الَّا واحد منهم وارامل كثيرات كنَّ في ايام ايليَّا النبي فما انتفع منهُ الَّا واحدة منهنَّ من صرفت صيدا».

ثم اننا نرى معلمنا هذا السماوي يوضح لنا في محالَّ أخرى ان بعض البلايا تحلُّ بالناس عن ذنب وبعضها عن غير ذنب. فان المقعد الذي شفاهُ هو لهُ الجد قال لهُ (يوحنَّا ٥: ١٤): «لا تُعُدْ تخطئ لئلَّا يصيبك اشرُّ». والاعمى شفاهُ وسألهُ رسلهُ (يوحنَّا ٩: ٢) عن سبب عماه ان كان معهُ او من أبويه لذنوبٍ أتوها فقال لهم: «لا هو ولا ابواه اذنبوا ولكن ليتمجد الله» اذ عمل منهُ اعجوبةً فاستحقت لهُ الشكر والتمجيد

فوالحالة هذه كيف يستقيم لنا حكم في تصرُّفات العناية الالهيَّة سواء كان في توزيع الخيور او في انزال الشرور الَّا بان نقول انَّ هذه البلايا وهذه الخيرات تصيب

الابرار والاشرار معاً لغايات سامية يقصدها تعالى. وان سألت عن هذه الغايات اجابك القديس اغوسطينوس بدقة عند كلامه عن الحادثين المذكرين آنفاً فقال: « انَّ الله لا يسمح في هذه الدنيا بجميع الاخيار ان تلمَّ بهم المصائب ولا بجميع الاشرار ان يكونوا ناعمي البال خالين من البلايا ولا يأمر بهؤلاء ان يتعذَّبوا ولا بأولئك ان يتنعَّموا. على انهُ متى تنعَّم جميع الاخيار تهافت الناس على عبادة الله طمعاً في نعيم الدنيا لا على رجاء الخيرات الابديَّة ولو تساهل بان يكون جميع الاخيار متعذبين متضايقين في هذه الدنيا لأدَّى ذلك الى شكوك وتقاويل اذ يُقال: « هوذا حبُّ التقوى يُدلي الى حبِّ البلوى ». وكذلك لم يأمر بجميع الاشرار ان يعذَّبوا بهذه الدنيا فراراً من اقبال الناس على حبِّ الفضيلة عن خوف وفزع ولا بان يتنعَّم كل الاشرار هُنا حذراً من اعتبار الناس ان عمل السيئات مأتى للحسنات. لكنَّ جلَّت حكمتهُ ترك تصرُّفات عنايتهِ الالهيَّة تتراوح بين الاخيار والاشرار في البلايا والمصائب كما تركها تتراوح بينهم ايضاً في النعم والمواهب. فلا يفرح الناس بأجل ذيَّاك الشقي اعتقاداً منهم بان العدل انزل بهِ البلايا اقتصاصاً منهُ حتى يحزنوا لرؤيتهم هذا التقي يشربُ الكأسَ نفسها فتلتبس عليهم المسألة ولا يعرفون من طرقها شيئاً وكيداً الَّا انهم لا يرتابون في ان الله يحب اولياءهُ الابرار وقد اعدَّ لهم نعيم الملكوت جزاء كافياً عن اتعابهم واحتمالهم في هذه الدنيا لا هبةً منهُ واحساناً اذ لا بُدَّ لهم من احتمال البلايا والنوائب » اه

ولمَّا سُئل القديس يوحنَّا فم الذهب لماذا الاخيار في سوء حال والاشرار في حسن حال اجاب بقولهِ: « ليس الامر كذلك على وجه الاطلاق لان بعض الاشرار يبتليهم الله وبعضهم خالون من البلايا وكذلك الاخيار فان بعضهم يتنعَّمون وبعضهم يشقون. وان سألت عن السبب قلتهُ لك وهو ان الله قد يتغاضى في هذه الدنيا عن بعض الاشرار ولا يتعقبهم لتعلم انَّ في الآخرة دينونة. واماً تعقُّبهُ للبعض الآخر منهم هنا فلتنبيه الغافلين الى التوبة والصلاح ومثلهُ توفيقهُ لبعض الاخيار احياناً فانهُ لتحبيب الفضيلة الى الناس واماً عدم توفيقهِ للبعض الآخر من الاخيار فلتعلم ان عندهُ غير هذه الدنيا وهنالك يجازي الجميع على اعمالهم الجزاء التام المتوجب لهم » اه. قال المعلِّم روسو: « لو لم يكن عندنا بيِّنة على عدم ميتوتة النفس الَّا مذلَّة البار وعزَّة المنافق في هذه الدنيا لكفى بذلك دليلاً لنا على عدم الريب فيها فان الخلل العظيم الحاصل في النظام العام يدعوني

الى البحث عن حقيقته فاقول بعدئذٍ لنفسي لا ينتهي كل شيء معي عند نهاية حياتي من هذه الدنيا اذ انهُ عند الموت يصير تنظيم كل شيء ». ثم رجع في الذهب وقال: « لا يخلو بارٌّ من شر كما لا يخلو شريرٌ من برٍّ فلو ان الله عاجل الخطأة بالعقاب لباد جنس البشر لكنهُ قد يعاقب بعضهم هنا اقتيادًا لهم الى التوبة فان لم يتوبوا عاقبهم في الآخرة ايضاً وبعضهم لا يُستحسن عقابهم هنا بل مع الشياطين في الآخرة وذلك لفرط فجورهم وشرورهم واما اذا استعمل مع بعض الاشرار المكابرين حلمهُ ورأفتهُ فذلك لانهُ تعالى ما احبَّ ان يحرمهم من الخيرات الحاضرة ولو انَّهم احبُّوا ان يحرموا انفسهم من خيرات الآخرة ». ثم ختم كلامهُ احسن ختام بان قال: « انهُ لا يليق بنا قطعاً ان نسأل هذا السؤال وهو لماذا الاخيار في شقاء والاشرار في رخاء انما قلتُ ذلك من بعد ان اعلمنا الله بتلك النعيم العظيم وعذاب الجحيم الأليم » اه

لقد تبيَّن لنا يا معاشر الادباء الكرام ان مسألة الحظوظ في هذه الدنيا من اسرار العناية الازليَّة لا تدركها مداركنا البشريَّة وكم من اسرار في الطبيعة لم نتوصل الى ادراكها فلا يهمنا اذًا ان نبحث بعد في هذه المسألة بل يكفينا اعتبار امرين: (اولهما) ان الله يحبنا كثيرًا لانهُ هو الذي خلقنا كرمًا منهُ ومنَّةً وهو يهتمُّ بنا ولا اهتمام الامهات بأولادهنَّ وهو تعالى قد احصى شعور رؤوسنا دلالة على مبالغته في الاهتمام بنا وما من والدة فعلت كذلك بولدها. فلو انهُ تعالى جودهُ رأى ان الحال التي ترتاح اليها انت أيُّها اللبيب من غنى وصحَّة او طول حياة او رفعة مقام الى غير ذلك توافق خير نفسك لما ضنَّ عليك بها وهو قد بذل ابنهُ الوحيد لاجلك... (ثانيهما) ان الله عادل يجازي كل واحد حسب اعمالهِ لكن الجزاء التام لا يكون الَّا في الآخرة. فانظر اذًا الى نفسك وما استحقَّت باعمالها فان طلبت المكافأة في هذه الدنيا عن حسناتك فلم لا تطلبها عن سيئاتك وان قلت بعد: لماذا انا غير موفَّقٍ وغيري موفَّقٌ حال كوني افضل منهُ واعقل واكفأ؟ قلتُ لك: وهذه المواهب التي تدَّعيها من فضل وعقل وكفاءة انَّما هي من الله وهي فيك وليست فيه. ان الله سوف يجازيك بحسب استحقاقك في مكان المجازاة وزمانها وذلك في السماء بعد هذه الحياة فان طلبت جزاءك في الحاضرة هنا عاكست نظام الله وكان الجزاء غير وافٍ باستحقاقك ان خيرًا وان شرًّا. هذا فضلًا عن كون هذه الحياة هي زمن الجهاد المرتَّب على الجميع فكيف بك تطلب الاكليل

قبل نهاية جهادك . وهذه امك الكنيسة المقدسة التي اقامها السيد المسيح وقد شراها بدمه الكريم وما زال معها وفيها مقيم فانها قد لاقت وما زالت تُلاقي من ضروب الاضطهاد وعواصف الكفر وطغيان الفساد ما لا يخفى على من يطالعون تاريخها نظيرك وانت احد اولادها أفما ينبغي ان تتشبه بامك في احتمال شيء من المكاره ولو بمعاكسة الدهر لك لتصير اهلًا لنوال ذياك المجد العظيم في جنّات عدن « وجنّات عدن بالمكاره حُفَّت » . وهذا معلمنا الالهي الذي نهج لنا الطريق بعمله وتعليمه أما يلزمك ان تمشي على آثاره وحسب التلميذ ان يكون مثل معلمه . وهؤلاء رسلهُ وانصارهُ الذين ساروا على خطواته قدّامك وهؤلاء المسيحيون الحقيقيون الذين عاشوا في الايمان والرجاء لم يكن يهمهم شيء من احوال الدنيا بل كانوا قاصرين كل اجتهادهم واهتمامهم على نوال الخيرات المقبلة فما شأنك وهؤلاء كلهم

فترى مما سبق انَّ تباين الحظوظ في هذه الدنيا من جملة الامور الغامضة التي اخفتها علينا العناية الربّانيّة لمقاصد منها سامية كما اخفت علينا يوم موتنا وساعتهُ لنعيش في السهر والتحفُّظ منتظرين في كل لحظة مجيء ربّ البيت لنفتح لهُ ونؤدّي الحساب عن اعمالنا . فكذلك اخفى علينا سبحانهُ وتعالى ادراك اسرار عنايتهِ في توزيع خيراتهِ بين الصالحين والطالحين . الآن يُشرق شمسهُ على الاخيار والاشرار معًا ويسكب غيثهُ على الابرار والفجّار دون فرق ولا تمييز ويدع القمح والزوان ينبتان معًا الى اوان الحصاد ولا يفرق بين السمك الجيّد والرديء الذي جمعتهُ الشبكة حتى يتمّ نظام عالمنا هذا الذي سبق وقضى بهِ . ولولا ذلك لاضطُرّت العناية ان تبادل كلّ يوم هذا النظام وتأتي في كلّ ساعة بعجائب غرائب فتسقي مثلًا حقل رجلٍ صالح دون حقل جارهِ الطالح وتنزل البَرَد على ارض الرجل الشرير وترحم الرجل المبارّ وكلاهما متجاوران متلاصقان في ارض واحدة وكذلك اذا حلَّ زلزال تخرب طابق رجل السوء وتضرب عن طابق رجل الخير وهلمَّ جرًّا وفي كل ذلك من التشويش ما لا يُطاق . فالاولى اذًا ان نقول مع القديس اوغسطينوس : « انَّ توزيع الخير والشرور سرٌّ حفظتهُ الحكمة الازليّة لنفسها . الآن خيرات الدنيا وويلاتها مختلطة مشتركة بين البشر والله سبحانهُ لم يفرق في توزيعها بين الاخيار والاشرار ولكن في الآخرة ليس الامر كذلك فانَّ خيورها انما هي للاخيار وحدهم كما انَّ شرورها للاشرار فقط »

فلنسجدنّ خاضعين لتدابير العناية الالهيَّة ولنحذرنَّ من التنقيب عنها ولنقبل بكل طيبة خاطر ما تقسمهُ لنا من خيرٍ وشرٍّ ولنواصل سفرنا في بحر هذا العالم كيف ما جرت الرياح طالبين الوصول الى تلك الخيرات المعدَّة للاخيار وحدهم والنجاة من الويلات المعدَّة للاشرار وحدهم وذلك في العالم الآتي

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٥ الامم البائدة في لبنان

٢ اليونان

انتقض حبل الاثوريين في الشام (ولبنان معها) بتغلُّب الفراعنة على سوريَّة. ثم تبعهم ملوك اشور الكلدانيُّون وخلف الفرسُ الاشوريين. وكلُّ هذه الدول بعد كسرتها تركت من آثارها شيئاً في بلادنا ولا بُدَّ ان يكون تخلَّف من تلك الامم بعض بقايا امتزجت باهل فينيقية امتزاج الماء بالراح حتى لم يَعُد يمكن افراز هذه العناصر الغريبة عن الاهلين الاصليين. وكان لبنان في عهد كل هذه الدول قليل السكَّان للاسباب التي ذكرناها في مقالاتنا السابقة وان كان عدد المهاجرين اليه لم يزل يزداد يوماً فيوماً بتزاحم السكَّان وحراثة الآكام الواقعة عند منعطف الجبل

ولمَّا كانت اواخر القرن الرابع ظهر ذلك البطل الصنديد والملك العظيم اسكندر ذو القرنين المقدوني فكان اوَّل ما تطاولَ اليه عنقهُ البلاد السوريَّة وكان يملك عليها وقتئذٍ داريوس ملك الفرس فزحف اليها بجنوده بعد ان غلب اعداءهُ في سهول قيليقية قريباً من مدينة ايسُوس فما مرَّ عليه بضعة اشهر حتى فتح سواحل فينيقية وخضعت لهُ دمشق ولم يقم في وجههِ الَّا صور فحاصرها مدَّة الى ان اخذها عنوة في تمُّوز من سنة ٣٣٢

وكان في اثناء محاربة الاسكندر لصور قد اغتال بعض اجلاف اللبنانيين قوماً من اصحاب الملك فقتلوهم. فسار الاسكندر بقسم من عسكرهِ الى لبنان فلم يلقَ في